التطور المعماري لمدينة القدس
في الفترة الإسلامية

د. مروان أبو خلف *

* أستاذ مشارك في التاريخ والآثار، المعهد العالي للآثار الإسلامية، جامعة القدس.

ملخّص:

تتناول هذه المقالة التطور المعماري في مدينة القدس خلال الفترة الإسلامية؛ أي منذ دخول الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب حتى نهاية الفترة العثمانية، حيث بدا واضحا من خلال دراستنا لمخطط المدينة أنه قد طرأ عليه بعض التغير عن الفترة السابقة حسب ماورد في خريطة مأدبا، والمتضمن إضافة المنطقة الشرقية التي تشمل منطقة المسجد الأقصى والجزء الملاصق لها من الجهتين الشمالية والجنوبية. وقد أشارت البقايا المعمارية التي ما زالت قائمة أن هناك تطوراً معمارياً بدأ منذ اللحظة الأولى التي دخل بها المسلمون المدينة، وذلك بإنشاء المسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرها من المعالم المعمارية إضافة الى قطاعات معمارية أخرى كالمنشأت الثقافية والتجارية والاجتماعية، مما ساعد بشكل مباشر في صبغ المدينة بالطابع الإسلامي، وهو الطابع الذي ما زالت المدينة تتمتع حتى يومنا هذا.

Abstract:

This article deals with the architectural development of Jerusalem during the Islamic period, from the time of the second orthodox Caliph Omar Ibn al-Khattab who entered the city in 638 until the end of the Ottoman period 1917. According to Madaba map, it appears that there was a change on the plan of the city; it comprises the addition of the eastern part which includes the Aqsa Mosque area and its southern and eastern parts. The architectural remains indicate that there was an architectural development, started from the first moment after Muslim taking over the city. This proved by the construction of the Aqsa Mosque, the Dome of the Rock and other monumental buildings, which still stand and located in various areas within the city walls. These buildings represent all the architectural sectors: cultural, commercial and social, which touched the city by the Islamic characters, which still to be seen until our days.

مقدمة:

العمارة – بشكل عام – هي عنوان التطور الحضاري لأي أمة من الامم عبر العصور التاريخية، وهي المعيار الذي يستخدمة العلماء والدارسون للتعرف إلى مدى التقدم الحضاري الذي وصلت إليه هذه الأمة ، وذلك من خلال نوع البقايا المعمارية الباقية وأسلوبها. وفن العمارة هو أكثر الفنون انتشارا خلال الفترة الإسلامية، حيث دلت البقايا المعمارية المنتشرة في أنحاء البلاد التي انضوت تحت لواء الدولة الاسلامية كافة على الدور المهم الذي كان لفن العمارة على طول هذه الفترة، كما دلت هذه البقايا على عظمة هذه العمارة وتنوعها.

وقد كان نصيب مدينة القدس من هذا الفن المعماري كبيراً ، حيث كان له – كما تشير البقايا المعمارية التي ما زالت قائمة – أثره الكبير في تطور مدينة القدس، كما دلت على المكانة المتميزة التي كانت تتمتع بها



هذه المدينة .



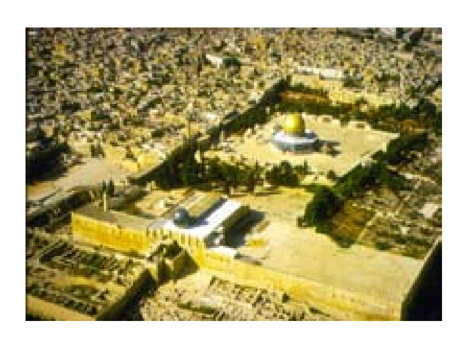
لم لا، فلا توجد مدينة تماثل في عظمتها وقدسيتها مدينة القدس، فهي ذات مكانة تاريخية ممتميزة، وهي بالنسبة للمسلمين أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وإليها كان الإسراء ومنها كان المعراج . هذه المكانة العظيمة للمدينة المقدسة لم تغب عن بال الخلفاء المسلمين الذين أولوا المدينة جل اهتمامهم وعنايتهم، ويظهر ذلك بشكل واضح من خلال المخلفات المعمارية الدينية والمدنية بأنواعها المتعددة التي انتشرت في انحاء المدينة كافة: كالمساجد والمدارس والزوايا والتكايا والأربطة والأسبلة والخانقاوات والأسواق والخانات، والحمامات، والمقامات، والترب...الخ.

وقد بدأ البناء والتعمير في مدينة القدس في الفترة الإسلامية كما تذكر المصادر منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه هذه المدينة إسلامية. وذلك لتلبي متطلبات العقيدة الجديدة والسكان الجدد ، آخذين بعين الاعتبار – وتاكيداً للمعاهدة التي أمن فيها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب سكان المدينة على أموالهم وممتلكاتهم[١]– أن المسلمين لا بدّ أن يعملوا على بناء عمائر وأبنية خاصة بهم في أنحاء المدينة كافة حيث تركزت –كما نرى من



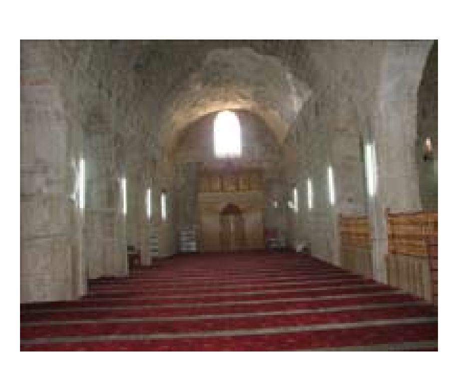
مخطط المدينة– على الجهة الشرقية منها، والناظر إلى مخطط المدينة عند الفتح الإسلامي والذي يمكن التعرف إليه من خلال الخارطة الفسيفسائية التي اكتشفت في مدينة مادبا في الأردن. والتي تعود في تاريخها إلى القرن السادس الميلادي، يرى بوضوح مخطط المدينة، ويمكنه التعرف إلى أهم العمائر التي كانت منتشرة فيها قبل الفترة الإسلامية، ويبدو واضحا للدارس من خلال هذا المخطط أنه لا يضم المنطقة الشرقية التي تمثل اليوم منطقة الحرم القدسي الشريف ، والجزء الملاصق لها من الجهتين الشمالية والجنوبية، ويعود ذلك لإهمال البيزنطيين للمنطقة، وجعلها – كما تذكر المصادر– منطقة للقمامة(٢).

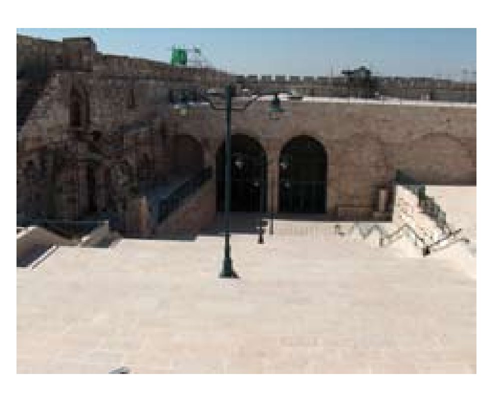
الحرم القدسي الشريف:



تذكر المصادر التاريخية أن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بعد دخوله للقدس والتعرف إلى منطقة الصخرة المشرفة، عمل على تنظيف منطقة الحرم، ورفع القمامة عن الصخرة ، وكذلك خطط هناك لمحراب في الجهة الجنوبية الشرقية ، وهو موضع المسجد اليوم، أما المقدسي فقد أشار إلى بناء المسجد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، إلا أن مصادر أخرى أشارت إلى أن الخليفة قد أمر ببناء مسجد فقط(٣).

وتشير البقايا المعمارية التي خلفها الأمويون في المدينة المقدسة إلى نشاط معماري واسع، واهتمام كبير قام به عبد الملك بن مروان في هذه المدينة، تركز بشكل أساسي في هذه المنطقة: حيث بُنيت العديد من المباني: كقبة الصخرة والمسجد الأقصى وقبة السلسلة، ودار الإمارة، والباب الذهبي، والباب المزدوج التي أثرت بشكل واضح في المدينة المقدسة، وساهمت بشكل مباشر في تطويرها معمارياً.





وأول ذكر لوجود بناء على منطقة المسجد الأقصى أوردها الرحالة الإسباني أركولف الذي زار المدينة عام ٦٧٠م ، والذي ذكر أن بيتاً للصلاة قد أقيم في المنطقة، ووصفه بأنه مربع الشكل ، ويتسع لثلاثة آلاف شخص. والجدير ذكره أن الفترة التي زار فيها هذا الرحالة المدينة المقدسة تتناسب مع فترة حكم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان الذي حكم بين ٤٠-٦٠ هـ، ٦٦٠-٦٨٠ م(٤).

لذا فالاحتمال أن البناء الذي شاهدة أركولف، هو إما البناء الذي أمر ببنائه عمر، واستخدم في الفترة الأموية في عهد معاوية، أي أنه البناء الذي جدد في عهد معاوية. وتجدر الإشارة إلى أن معاوية بن أبي سفيان- كما تذكر المصادر التاريخية - أخذ البيعة في مسجد بيت المقدس ، الذي - كما نعتقد - أطلق عليه اليوم اسم المصلى المرواني(٥).

الأسوار:

ولبناء أبنية كالموجودة في منطقة الحرم القدسي الشريف، فإنه لا بد أن يكون قد أعيد بناء الأسوار لهذه المنطقة بالإضافة إلى بناء المداخل المؤدية إليه و تشييدها، كما يتطلب وضع خطة بناء لإنجازها، حيث تذكر المصادر التاريخية أن عبد الملك بن مروان أعاد بناء جدار منطقة المسجد، وبشكل أساسي الجدار الشرقي الموجود عليه الباب الذهبي (باب التوبة والرحمة باب النبي) ، وكذلك الجدار الجنوبي الغربي الذي فتح فيه بابان: الباب الثلاثي والباب المزدوج ، وكلا الجزئين يشكلان جزءاً من سور المدينة الكبير.



وخلال الفترة الإسلامية رُممت أسوار المدينة مرات عدة، كان من أهمها تعمير صلاح الدين الأيوبي، الذي اهتم بالسور اهتماما كبيرا حيث جدد الأجزاء المهدمة منه، وجدد الأبراج الحربية في باب العامود وباب الخليل ، والترميم المهم الآخر للسور كان في الفترة العثمانية في أيام السلطان سليمان القانوني الذي دامت عمارته خمسة أعوام

٩٤٣-٩٤٧هـ/١٥٣٦-١٥٤٠م، كما هو وارد في نقوش تذكارية ثبتت في السور في أثناء عملية الترميم. ومحيط السور الحالي يبلغ ميلين ونصف ، وارتفاعه بين ٣٨-٤٠ متراً وطوله من الشمال ٣٩٣٠ قدماً، ومن الشرق ٢٧٥٤ قدماً، ومن الجنوب ٣٢٤٥ قدماً، ومن الغرب٢٠٨٦ قدماً، وله أربعة وثلاثون برجاً وأحد عشر بابا، سبعة منها مفتوحة، وأربعة مغلقة، وقد نالت هذه الأبواب نصيباً وافراً من هذا الإعمار، أما الأبواب المفتوحة فهي باب الساهرة، وباب العامود من الشمال، وباب الأسباط من الشرق، وباب المغاربة من الجنوب، وباب الخليل من الغرب، وباب الجديد من الشمال الغربي، وهو أحدث هذه الأبواب. أما الأبواب المغلقة فهي الباب الذهبي(باب الرحمة والتوبة)، وهما بابان كبيران متلاصقان سدا بعد الفتح الصلاحي. وباب الجنائز على الجهة نفسها من السور، وكذلك الباب المزدوج والباب الثلاثي في الجهة الجنوبية. من السور.

وهناك سور لمنطقة الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، التي تقوم على ربوة شبه منحرفة الأضلاع، وتقع في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة القدس، حيث يبلغ طولها الجنوبي ٢٨١ والشمالي ٣١٠م، والشرقي ٤٦٢م والغربي ٤٩١م.



ولهذه المنطقة أربعة عشر باباً أربعة منها أغلقت بعد الفتح الصلاحي للقدس كاجراء أمني لحمايته وهي: الباب الذهبي (باب الرحمة والتوبة). الواقع في الجهة الشرقية، والأبواب الثلاثة المعروفة أثرياً بالمنفرد والمزدوج ، والثلاثي الواقعة في الجهة الجنوبية للحرم القدسي الشريف.

أما الأبواب المفتوحة فهي في الجهة الغربية باب المغاربة، أو باب السلسلة، أو باب المتوضأ، وباب القطانين، وباب الحديد، وباب الناظر، وباب الغوانمة، وفي الجهة الشمالية باب العتم، وباب حطة، وباب الأسباط.

ويحيط بهذه المنطقة – كما هو متبع في نظام المساجد – أروقة جانبية لم تذكر المصادر التاريخية وصفاً لها في الفترات الإسلامية المبكرة، باستثناء الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار المسجد الأقصى قبل الاحتلال الصليبي له، والذي أشار إلى وجود رواق في الجهة الشرقية للحرم القدسي الشريف، ولكنه تهدم واندثر جراء الهزات الأرضية التي حدثت في القدس، ولكن ما هو موجود اليوم هما رواقان قائمان على الجهتين الشمالية والغربية لمنطقة الحرم الشريف اللذين من المحتمل أن يكونا قد أُقيما على أساسات الأروقة

الأصلية والقديمة وقد عرفا بالرواقين الشمالي والغربي.

وعلى هذه الأروقة هناك أربع مآذن تعود في تاريخها للفترة المملوكية ، حيث من المحتمل أن تكون هذه المآذن قد قامت على أساسات قواعد المآذن الأموية لمنطقة الحرم وأنقاضها، ثلاثة من هذه المآذن تقع في الجهة الغربية ، وهي مئذنة باب المغاربة التي تقع على الركن الجنوبي الغربي لمنطقة الحرم، وتعرف كذلك بالمئذنة الفخرية نسبة للقاضي شرف الدين عبد الرحمن بن الصاحب الوزير فخر الدين الخليلي، ناظر الحرمين الشريفين (في القدس والخليل)، ومئذنة باب السلسلة الواقعة وسط الجهة الغربية بالقرب من باب السلسلة حيث بنيت في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ومئذنة باب الغوانمة التي تقع في الركن الشمالي الغربي لمنطقة الحرم الشريف التي بُنيت في عهد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦هـ-١٢٩٧م. ثم مئذنة باب الأسباط التي تقع في وسط الجهة الشمالية وبنيت في عهد السلطان الملك الأشرف شعبان ٧٦٤هـ-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٦م، ومن حيث شكلها يبدو أنه أعيد بناؤها في الفترة العثمانية.

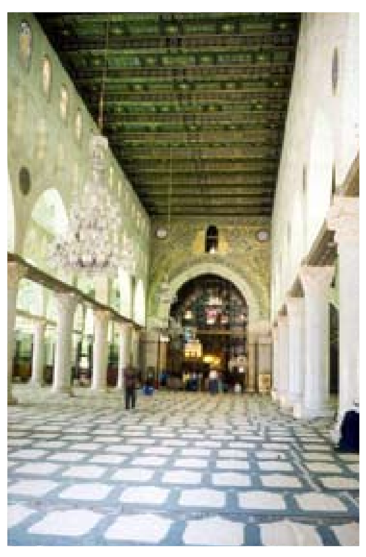
وعلى هذه المنطقة أنشأ الأمويون معالم حضارية تعدٌ من أعظم المعالم التي خلفتها الحضارة الإسلامية وهي: المسجد الأقصى وقبة الصخرة ودار الإمارة وقبة الساسلة والباب الذهبي.

المسجد الأقصى:

يقع المسجد الأقصى المبارك في الجهة الجنوبية من منطقة الحرم القدسي الشريف- وكما ذكرنا - أن أول بناء لهذه المسجد كان بأمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وجدده معاوية بن أبي سفيان، وعلى ما يبدو أن هذا المسجد لم يعد يتناسب والأبنية التي قام ببنائها الأمويون كقبة الصخرة، فعملوا على تأسيس المسجد الأقصى وبنائه من جديد.

وبنى المسجد الأقصى الجديد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ-٦٩هـ)، (٧٥٠-٧١٥م)، وقد أكدت ذلك وثائق البردى (أوراق البردى) التي احتوت على مراسلات بين قرة بن شريك عامل مصر الأموي (٩٠-٦٩هـ٧٠٩-٧١٤م)، وبين أحد حكام الصعيد، حيث تضمنت كشفا بنفقات العمال الذين شاركوا في بناء المسجد الأقصى خلال هذه الفترة. والمسجد الأقصى الأموي





-كما يذكر المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم- كان في مساحته أكبر بكثير مما عليه اليوم، فقد كان يتكون من خمسة عشر رواقا ، أكبرها الرواق الأوسط وسبعة أروقة في كل من الجهة الغربية والجهة الشرقية. ويفتح في كل رواق باتجاه الشمال بابٌ أكبرها أيضا باب الرواق الأوسط الذي ينتهي في الجهة الجنوبية بقبة خشبية مغطاة بالرصاص، ومزخرفة من الداخل بالزخارف الجصية المدهونة بالألوان المختلفة(٦).

أما المسجد الأقصى الحالي فإنه يتألف من سبعة أروقة. الأوسط الكبير تحفُّ به ثلاثة أروقة من كل جانب بدلا من خمسة عشر رواقا كما ذكرنا في السابق، فالرواق الأوسط الكبير يقوم على أعمدة رخامية ممتداً من الشمال إلى الجنوب يغطيه جملون مصفح بألواح الرصاص ، وينتهي من الجنوب بقبة عظيمة الهيئة والمنظر كروية الشكل، تقوم على أربع دعامات حجرية تعلوها أربعة عقود حجرية، نتج عنها أربعة مثلثات ركنية لتكون بمثابة القاعدة التي تحمل رقبة القبة، والقبة نفسها التي تتكون من طبقتين داخلية وخارجية زينت من الداخل بالزخارف الفسيفسائية البديعة، أما من الخارج، فقد غُطيت بصفائح النحاس المطلية بالذهب، ولكنها استبدلت حديثاً بألواح من الرصاص، وذلك للزوم أعمال الترميم التي تمت على يدي لجنة اعمار قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك. بالنسبة للأروقة الواقعة في القسم الغربي من الرواق الأوسط ، فقد غطيت بالأقبية المتقاطعة المحمولة على العقود والدعامات الحجرية التي أنشئت في الفترة المملوكية. أما القسم الشرقي فقد غطي بسقوف خرسانية تقوم على أعمدة وعقود حجرية رُممت وأعيد بناؤها من قبل المجلس الإسلامي الأعلى عام١٩٣٨م-١٩٣٤م، ويدخل إلى المسجد الأقصى من خلال أبوابه السبعة التي فتحت في واجهته الشمالية المذكورة عليها، وهناك واجهة أخرى هي عبارة عن رواق أُضيف في الفترة الأيوبية ، ويمتد من الشرق إلى الغرب، ويتألف من سبعة عقود حجرية، بني في العهد الأيوبي من قبل السلطان الأيوبي الملك المعظم عيسى في سنة ٦١٤هـ/١٢١٨م(٧).



المسجد الأقصى - بشكله الحالي الذي ينقص أربعة أروقة من كل جهة عن المسجد الذي كان في العهد الأموي- يعود إلى ما بعد الفترة الفاطمية، أي الصليبية، لأن الرحالة الفارسي

ناصر خسرو الذي زار المدينة المقدسة، وصف المسجد بعد الترميم الفاطمي ١٠٤٥م، لم يشر إلى أي نقص في أروقة المسجد إضافة إلى أن شكل ألـ Rosette التي تظهر على جانب المسجد الأقصى من جهة الشرق، يؤكد استخدام هذا الجزء كنيسة للصليبين، وهذا يجعل الاحتمال أكبر أن النقص في أروقة المسجد كان من قبلهم(٨).

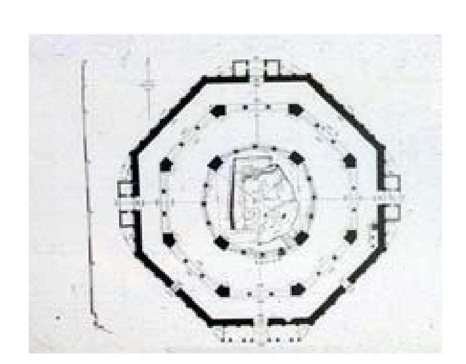
قبة الصخرة:

ومن البقايا الأثرية المهمة الأخرى في مدينة القدس، قبة الصخرة المشرفة. وهي من أهم ما خلفته الحضارة الاسلامية وأبرزها. أمر ببنائها الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـ/٦٩٢م.

وقد ذكرت المصادر التاريخية أن الخليفة صرف على بنائها خراج مصر لسبع سنوات. ولعل الشكل المعماري الذي بني على أساسه هذا البناء ، وهو المثمن من النماذج الفريدة في تاريخ العمارة الإسلامية. يتألف البناء في تصميمه من مثمن خارجي، وآخر داخلي، ثم دائرة تتوسط البناء ترتكز إليها القبة. والمثمن الخارجي عبارة عن جدران مغلقة فيها أربعة أبواب تقع في الجهات المقابلة للجهات الأربع، وعلى كل ضلع من أضلاع المثمن سبعة شبابيك اثنان منها على طرفي كل ضلع من أضلاع البناء مغلقان. أما المثمن الداخلي فهو عبارة عن عقود تستند إلى دعامات، وأعمدة تحمل السقف الكائن بين المثمن الخارجي والقبة.



ثم تاتي الدائرة التي تتوسط البناء، وتتكون من أعمدة ودعامات ترتكز عليها القبة. وجدران البناء من الداخل والخارج مغطاة بالعديد من الزخارف المعمارية، كالزخارف الفسيفسائية التي تغطي جزءاً كبيراً، من داخل البناء. والقاشاني ذي الألوان المتعددة الذي يغطي المثمن الخارجي من الخارج، هذا إضافة إلى زخارف رخامية خشبية تغطي أجزاء مختلفة داخل قبة الصخرة(٩).



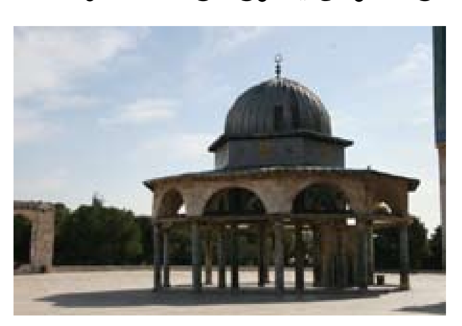
دار الإمارة :

يقع قصر الإمارة في الجهة الجنوبية الغربية من الحرم القدسي الشريف في مدينة القدس، واكتشف هذا القصر ضمن أبنية أخرى خلال الحفريات التي أجريت في المنطقة بين عامي ١٩٦٨–١٩٧٠م من قبل الجامعة العبرية في القدس. إذ كشف خلال هذه الحفريات عن ستة مبان أهمها بناء رقم II الذي يعتقد أنه كان قصر دار الإمارة، وذلك من خلال حجمه ومخططه وغيرهما من المظاهر المعمارية كاحتمال وجود جسر أقيم فوق عقد نصف دائري يصل ما بين سطح الطابق الثاني وبين المسجد الأقصى.

القصر بناء مستطيل ٨٤X٩٦م. وهو مكون من طابقين: الأول، ذو ساحة وسطى مكشوفة ومبلطة بألواح حجرية ذات أحجام مختلفة، ومحوطة برواق مغطى محمول على الأعمدة. والبناء المحيط بالساحة يتألف من مجموعة من القاعات مستطيلة الشكل. والجهتان الشمالية والجنوبية من البناء متشابهتان في التخطيط، وكذلك الجهتان الشرقية والغربية. كما كشف في هذا القصر عن كثير من البقايا الزخرفية المعمارية التي زخرفت جدار القصر كالقطع الرخامية والجصية والحجرية وغيرها. أما تاريخ البناء – كما يظهر من العناصر الزخرفية المكتشفة، ومن مخططات القصور الأخرى – فيعود إلى الفترة الأموية[١٠].

قبة السلسلة:

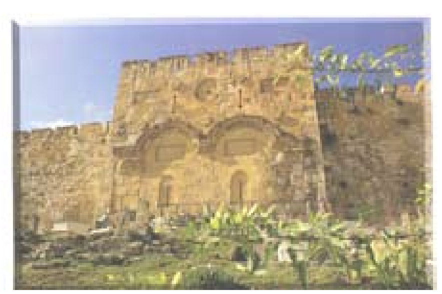
تقع في الجهة الشرقية من مسجد قبة الصخرة. أمر ببنائها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. لتكون (على الأرجح) نموذجاً مصغراً لبناء مسجد قبة الصخرة. وهي قبة سداسية الشكل تحملها ستة أعمدة ويحيط بالأعمدة رواق من الأقواس يتكون من أحد عشر ضلعاً يحملها أحد عشر عموداً. ولها محراب في الجهة الجنوبية. وقد رُممت هذه القبة مراراً. فرممها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وعليها نقوش تشير إلى اعتناء السلطان العثماني سليمان القانوني بها، إذ قام بكسوة جدارها بالقاشاني، وكذلك لجنة إعمار المسجد الأقصى، حيث كسيت قبتها بألواح من الرصاص عام ١٩٩٦م[١١].



الباب الذهبي:

يقع في الجهة الشرقية لساحة الحرم القدسي الشريف ضمن بناء السور الشرقي، وهو مطل على وادي قدرون المعروف بوادي جهنم. يعد هذا الباب من أقدم أبواب الحرم القدسي وأضخمها عمارة. وقد عرف هذا الباب بأسماء أخرى مثل: توما، والباب الجميل ، وباب التوبة والرحمة، وباب الدهرية، وباب شوشانا، والباب الشرقي.

يتألف الباب معمارياً من طابقين: السفلي، ويشمل الواجهات الخارجية، وتضم كلا من الواجهة الشرقية المطلة على مقبرة الرحمة، والجدر الداخلية، والقباب التي تغطيها، والعلوي ، ويتالف من غرفتين تقومان فوق الطرف الشرقي من الطابق السفلي، وتشكلان معه برجاً للمراقبة والحراسة، ويوصل إليها بوساطة السطح الخارجي للطابق السفلي من خلال سلم حجري صاعد إلى السطح من الطرف الشمالي الشرقي للواجهة الشمالية .



يمتاز هذا الباب بتنوع زخارفه وتعددها ، والتي قلما نجدها في غيره من الأبواب وهي زخارف نباتية وهندسية متنوعة، إضافة إلى الأشرطة الزخرفية التي تزخرف أجزاء متعددة من الباب. أما تاريخ بنائه فإنه – اعتماداً على الدراسات التحليلية الحديثة، ومن خلال الطراز المعماري والزخرفي– يبدو واضحاً أن تاريخ بنائه يعود إلى الفترة الأموية[١٢].

العمائر الثقافية والتعليمية:

إضافة إلى المسجد الأقصى الذي يعد المركز الثقافي والتعليمي الرئيس في مدينة القدس، حيث كان كبار العلماء على اختلاف جنسياتهم وتخصصاتهم يقومون بدورهم التعليمي بأروقة هذا المسجد، فإن العديد من العمائر الثقافية والتعليمية أنشئت في مدينة القدس خاصة بعد اشتداد نشاط الحركة الصوفية فيها. وقد تمثلت هذه العمائر بطرز معمارية ما زالت بقايا كثير منها قائمة مثل: المدارس والخانقاوات والزوايا.

المدارس:

نشأ هذا الطراز المعماري وتتطور في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، وذلك في عهد الوزير السلجوقي نظام الملك سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢ م وقد زاد انتشار المدارس في العصر الأيوبي، وشهدت بيت المقدس قفزة هائلة في بناء المدارس في العصر المملوكي. حيث خططت على نظام التخطيط المتعامد.

كانت هذه المدارس تتألف من أربعة أواوين يتوسطها فناء، وأوسعها الإيوان الجنوبي الذي يوجد فيه المحراب. وقد قدّر عدد المدارس في نهاية الفترة المملوكية والجزء الأول من الفترة العثمانية في القدس بحوالي ٥٠ مدرسة[١٣].

وتتميز هذه الأبنية بطراز معماري بارز ما زال ظاهراً للعيان، وقد ساهم بشكل واضح في إظهار الطابع الإسلامي للمدينة المقدسية. ويتمثل هذا بالواجهات المزخرفة ذات الأحجار الملونة كالأحمر والأبيض والأسود وبتزيينها بصفوف متبادلة، وكذلك باستخدام المقرنصات الهندسية والزخارف النباتيه والأشرطة الكتابية ، ومن أشهر هذه المدارس : المدرسة التنكزية والمدرسة الأشرفية.

- **المدرسة التنكزية:**

تقع بباب السلسلة من أبواب المسجد الأقصى في مدينة القدس.



عمّر هذه المدرسة الأمير تنكز نائب الشام (٧١٢-٧٤٠هـ/١٣١٢-١٣٩٩م) سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، وفق النقش المحفور على مدخل المدرسة. وكان تنكز من كبار العمرانيين، ومن أشهر نواب السلاطين الذين حكموا الشام في عصر المماليك. وكان البناء يشتمل على مدرسة وخانقاه للصوفية، وداراً للحديث، ورباط للعجائز من النساء.

يقوم تخطيط هذه المدرسة على نظام التخطيط المتعامد Cruciform حيث يتألف من أربعة أواوين يتوسطها فناء، وأوسعها الإيوان الجنوبي الذي يوجد فيه المحراب. واجهة المدرسة غنية بالزخارف، وهي تعكس الطراز المعماري المملوكي من خلال استخدام الحجارة المشهرة، والمقرنصات، والصنج المعشقة، والأشرطة الكتابية. وقد أوقف الأمير تنكز على مدرسته كما جاء في وقفيتها الحمامين الموجودين في سوق القطانين وهما :

حمام العين، والشفاء، وكذلك جميع الضيعة المعروفة بعين قينيا الموجودة اليوم بقضاء رام الله بكل ما فيها من أشجار وكروم ومروج وبيادر وطواحين ومزارع[١٤].

وتحتوي وقفية المدرسة على معلومات كثيرة قيمة عن أهداف المدرسة وأقسامها العلمية وصفة العاملين بها وشروطهم، إضافة إلى عدد الفقهاء والقراء وشيوخ الحديث والمدرسين والطلبة.

- **المدرسة الاشرفية:**

تقع في الرواق الغربي لمنطقة الحرم القدسي الشريف بين بابي السلسلة والمطهرة، حيث يتم الدخول إليها من مدخلها الرئيس الواقع في طرفها الجنوبي، الذي تتقدمه قوصرة أو سقيفة ما زالت تبهر الزائرين بعناصرها وزخارفها المعمارية، وقد وصفت المدرسة بأنها الجوهرة الثالثة في منطقة الحرم القدسي الشريف بعد قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك.



يتألف مبنى المدرسة الأشرفية من طابقين: الأرضي والأول. أما الطابق الأرضي، فيتكون من المدخل الرئيس والسقيفة التي تتقدمه والدركاه المؤدية إلى السلم الحجري الذي يوصل إلى الطابق الأول والقاعة الرئيسة.

أما الطابق الأول، فيوصل إليه بالسلم الحجري المؤدي إلى ساحة مستطيلة الشكل، ولا نشاهد منه إلا بقايا معمارية بقيت بعد تهدم المدرسة جراء هزة أرضية عنيفة حدثت في فترة لاحقة ، حيث نستطيع من خلال هذه البقايا التعرف إلى تخطيط هذا الطابق، وأنه كان يتألف من أربعة أواوين يتوسطها فناء.

أما تاريخ عمارة المدرسة فيعود للمرة الأولى إلى عهد السلطان الملك الظاهر خشقدم في عام ٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦٠-١٤٦٧م، ولكن لم يكتمل بناؤها بسبب وفاة السلطان خشقدم

٨٧٢هـ/١٤٦٧م ثم أعاد بناءها الملك الأشرف قايتباي ٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٥-١٤٩٦م وفرغ من بنائها سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢ كما جاء في الشريط الكتابي الموجود في الداخل.

وقد امتازت المدرسة الأشرفية بغناها بالعناصر المعمارية والزخرفية، حيث اشتملت على الحجارة المشهرة باللونين الأحمر والأبيض، والمقرنصات الركنية، والصنج المعشقة، واللوحات الرخامية المزخرفة بالزخارف الهندسية والكتابية(١٥).

الخانقاوات:

وهي نوع آخر من الأبنية الدينية الإسلامية التي نالت اهتماماً خاصاً لدى السلاطين في العصرين الأيوبي والمملوكي، حيث أن تيار التصوف اشتد في هذين العصرين في فلسطين بشكل عام، والقدس بشكل خاص وبلغ أقصى انتشار في العصر المملوكي.

والخانقاة – كما جاء في الموسوعة الإسلامية – كلمة فارسية مكونة من لفظين: خوان، ويعني الأكل، وقاة وتعني المكان. وكان يطلق على المكان الذي يأكل فيه الملك، ثم أطلقت على الأمكنة التي أعدت للمتصوفة. وقد ذكر المقدسي عن وجود خانقاوات في القدس، وقال إنها تابعة بشكل خاص للمزهرين من فرق الكرامية التي انتشرت في خراسان حيث كانت مجموعة منها تعيش في القدس. والخانقاة من الناحية المعمارية بناء يحيط بساحة وسطى مكشوفة، وتتألف من طابقين: الأول: خصص للمرافق الأساسية كالمطبخ والفرن والحمام، والثاني: للإقامة والخلوات، حيث إن كل خلوة خصصت لأحد الصوفيين. ولكل خانقاه شيخ أو ناظر يشرف على شؤون الخانقاة مثل الأوقاف وما يتبعها.

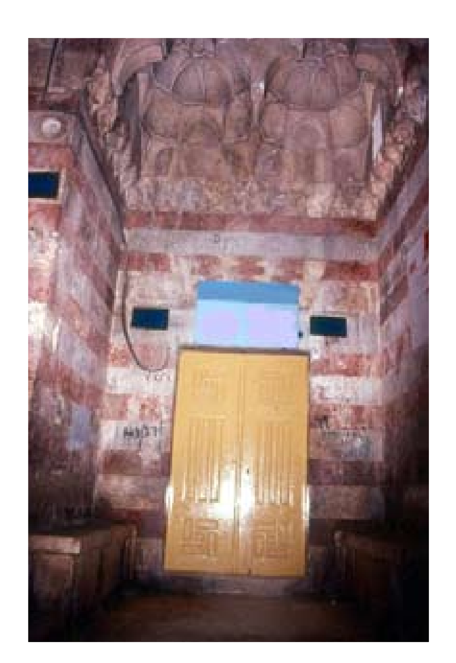
وللخانقاه مهمتها التعليمة إلى جانب مهمتها التعبدية. فالمتصوفة هم طلاب علم ايضاً لذا كان يعين في الخانقاة عدد من الشيوخ والعلماء والفقهاء ليقوموا بمهمة التعليم فيها. ومن أهم هذه الخانقاوات في مدينة القدس، الخانقاة الصلاحية ٥٨٥هـ/١١٨٩م، والخانقاة الدوادارية ٦٩٥هـ/١٢٩٥م ، والخانقاة الفخرية ٧٣٠هـ/١٣٣٠م[١٦].

• الخانقاه الصلاحية :



تقع عند ملتقى طرق حارة النصارى بطريق الخانقاه بالقرب من كنيسة القيامة، وهي من أقدم الخوانقوات في المدينة المقدسة. أسسها صلاح الدين الأيوبي، وترجع وقفيتها إلى سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، وهي مكونة من طابقين، حيث كانت تضم بالإضافة إلى مسجدها الحالي وخلوات الصوفية (غرف صغيرة) ، مدرسة يدرس فيها الطلاب ويقيمون. وكانت مشيخة الحانقاه الصلاحية من الوظائف المهمة في مدينة القدس. إذ كان شيخها يعين بمرسوم من السلطان، يُتلى في حفل يحضره ناظر الحرمين ونائب السلطان والقضاة. ومعظم مشايخها كانوا من بني غانم، وهي عائلة عربية استقرت في القدس بعد الفتح الصلاحي، وسكنت بجوار الحرم القدسي الشريف قرب باب الغوانمة الذي أخذ اسمه من اسم العائلة[١٧].

• الخانقاه الدوادارية:



تقع إلى الجهة الشرقية من طريق باب العتم بمحاذاة الجدار الشمالي لمنطقة الحرم القدسي الشريف، أنشاها علم الدين سنجز الدواداري عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م، مدخلها الرئيس والوحيد عن طريق باب العتم، وهو ذو واجهة تعكس الطراز المملوكي في الزخرفة، حيث اشتملت على الحجارة المشهرة باللونين الأحمر والأبيض، وكذلك المقرنصات، والصنج المعشقة، والنقوش الكتابية. يؤدي المدخل إلى ساحة مربعة مكشوفة تحيط بها غرف من الجهات الثلاث، ويوجد درج في الزاوية الجنوبية الشرقية يؤدي إلى الطابق الثاني الذي حُدّث مؤخراً، ويعتقد أنه كان يحتوي أيضا على غرف للإقامة، أو على عدد من الخلوات، كل خلوة خصصت لأحد الصوفيين[١٨].

الزوايا:



الزوايا كانت عبارة عن بناء مخصص لاستقبال المتصوفة المنتقلين عبر البلاد من زاوية إلى أخرى سعياً وراء المعرفة ورغبة في العطاء. وكانت صغيرة الحجم لا تتسع إلا لعدد قليل من المتصوفة والزهاد ومن وظائفها: أنها استخدمت كمصلى صغير أو مكان وخلوة خاصة لأحد الزهاد والمتصوفة ومريديه، وقد عرف بعضها باسم هؤلاء الشيوخ وبعضها عرف بأسماء إحدى الطرق الصوفية. ومن أشهر الزوايا في مدينة القدس "الزاوية المولوية" تقع في حارة السعدية عند نهاية الطريق المعروفة اليوم باسم طريق ابن الجراح أسفل بائكة المولوية.

يعود تاريخ إنشاء هذه الزاوية إلى العام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م، حيث أمر خداوند كاد بك أمير لواء القدس الشهير بأبي سيفين في زمن السلطان مراد الثالث بن السلطان سليم الأول[١٩] بإنشائها لأتباع الصوفية المولوية التي كان سلاطين بني عثمان يؤيدونها فانتشرت بسرعة.

تتكون الزاوية من طابقين: الأول، أصله كنيسة للصليبيين تدعى كنيسة القديس أغنس، حولها العثمانيون إلى مسجد، ثم بنوا فوقها طابقاً ثانياً ملا زال قائماً حتى اليوم، وهو بناء جميل متواضع له مدخل ضيق وجدره بيضاء. وصف هذا البناء كل من: عبد الغني النابلسي في العام ١١٠١هـ/١٦٨٩م، والشيخ مصطفى البكري الصديقي سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م. وللزاوية مئذنة طولها ١٢م مبنية من الحجر على الطراز العثماني.

المنشآت التجارية:

كان لمدينة القدس دورها التجاري المهم على المستويين المحلي والخارجي، حيث كانت المركز التجاري للمنطقة المحيطة بها، ويتوافد عليها سكان المنطقة لإجراء مبادلاتهم التجارية في الأسواق المحلية، وكذلك اتصالها مع الخارج حيث تأتي إليها القوافل التجارية محملة بالبضائع من مصر وبلاد الشام، وتعود محملة ببضائع أخرى، مما جعلها على اتصال بالأسواق الخارجية، وذلك يتطلب أن تكون فيها كغيرها من المدن الإسلامية منشآت خاصة بالأمور التجارية كالخانات والأسواق.

الخانات:

الخان كلمة فارسية تعني الفندق بالمفهوم الحديث ، وهو أحد طرز العمارة الإسلامية التي أدت دوراً مهماً بعد توسع رقعة الدولة الإسلامية. وهي عبارة عن أماكن بنيت خصيصاً بجانب الأسواق الرئيسية لإيواء المسافرين والحجاج والتجار داخل المدن وخارجها، وكان هؤلاء يدفعون ثمن إقامتهم في الخانات. والخان من الناحية المعمارية عبارة عن بناء مستطيل أو مربع الشكل يحيط بساحة وسطى مكشوفة بشكل عام، يتألف من طابقين: الطابق الأول، عبارة عن إسطبلات للإبل والخيول ومحلات تجارية لعرض وتخزين البضائع. والثاني: غرف للسكن وأحيانا يلحق به ديوان أو مسجد. وقد ذكر الرحالة أوليا جلبي في كتابة سياحتنا أن في القدس ستة خانات من أهمها خان السلطان ٧٨٨هـ/١٣٨٨م، وخان تنكز ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م[٢٠].



- **خان السلطان**

يقع قرب باب السلسلة وهو قريب من سوق الخواجات(التجار) وسوق الباشورة ، وهو من أشهر خانات القدس، وعرف فيما بعد بدار الوكالة، وقد بناه حسب النقش المحفور على لوحة رخامية موضوعة في الجهة الغربية من الزقاق الذي يؤدي إلى الخان- السلطان المملوكي بر قوق ٧٨٨هـ/١٣٨٦م، وجدد زمن السلطان العثماني مصطفى العثماني الثالث ١١٧٧هـ /١٧٦٣م. والخان يتكون من طابقين: الأول ، تتوسطه ساحة كبيرة محوطة بالحواصل والدكاكين والعنابر (أي الإسطبلات)، إضافة إلى قاعات كبيرة تقوم على دعامات مربعة.

وكان هذا الطابق يستعمل لخزن البضائع وإجراء المعاملات التجارية المختلفة. والثاني، يصعد إليه من خلال ثلاثة سلالم، حيث يوجد في هذا الطابق المسجد، ثم غرف من جهات: الشمال والغرب والشرق. وله ممشى أو ممر مكشوف يمتد أمام الغرف، وجميعها تطل على ساحة الخان.

أما بوابة الخان فهي كبيرة وواسعة يليها دهليز عليه قنطرة ذات أقواس، وعلى جانبيه غرف، ربما كانت دكاكين، وفي الجانب الأيسر يوجد إسطبل مقبب.

وبعد الدهليز توجد ساحة مكشوفة (صحن الخان). ورمم الخان مؤخراً من قبل دائرة الآثار التابعة للأوقاف الإسلامية، لكن معظم مرافقه بقيت مهجورة. غير أن هناك بعض الغرف تستخدم كورشات خاصة لصانعي الأحذية. وقد شهد هذا الخان في الماضي ازدهاراً كبيراً حيث كان المركز التجاري الرئيس لبيع القماش والبضائع المختلفة غالية الثمن، وبعد هذا الازدهار الذي شهده الخان بدأت أحواله تتردى مع بداية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وذلك نتيجة طبيعية للركود الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي ساد في القرون الأخيرة من العصر العثماني[٢١].

• **خان تنكز:**



يقع بداخل سوق القطانين، حيث يكون مدخله على الجانب الجنوبي منه.

أنشاه الأمير تنكز نائب الشام في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م. حيث تحمل البوابة الرئيس شعار الأمير تنكز المعروف وهو عبارة عن كأس بداخل دائرة. ومخطط الخان – كما هو واضح من بعض البقايا المعمارية، كالساحة الرئيسة التي يطل عليها المدخل الرئيس، وكذلك بعض الغرف الموجودة في الطابق العلوي التي كانت تستخدم للنزلاء – يشير إلى أنه يتشابه مع مخططات الخانات الأخرى والمتعارف عليه، كما ذكرسابقاً[٢٢].

الأسواق:

هي نمط من أنماط التكوين المعماري التجاري الذي جاء نتيجة نمو المدينة سكنياً، أو تطور تجارتها وازدياد حاجات سكانها، وكان ذلك منذ بداية الفترة الإسلامية. والأسواق وجدت على هيئة بناء مجموعة من الدكاكين الصغيرة على جانبي الشارع الرئيس المفتوح بينهما ساحة الشارع نفسه. وقد تركزت هذه الأسواق في مركز المدينة وليست بعيدة عن المساجد والخانات والوكالات وغيرها من العمائر الرئيسية المكونة لنواتها. وقد انتشرت هذه الأسواق وازدهرت في العصر المملوكي ، وذلك استجابة طبيعية للدور التجاري المرموق للمنطقة. وعزز انتعاشها وازدهارها نظام (الوقف) في تلك الفترة، مما أدى إلى كثرة المنشات التجارية مثل الأسواق لكونها مرافق موقوفة تمثل جانباً مهما في الاستثمار.

وقد اتخذت الأسواق أنماطاً معمارية عدة ، راعى فيها بانيها كل المتطلبات المناخية من حرارة ورياح، واتخذ فيها أسلوب التخصص في الصنعة، وحدد مواقعها لكل غاية في

السكن المدني.

وفي مدينة القدس هناك العديد من الأسواق المتخصصة والمنتشرة في أماكن متعددة من المدنية بجانب الخانات أو الوكالات من أهمها سوق القطانين، وسوق العطارين، وسوق التجار وغيرها[٢٣].

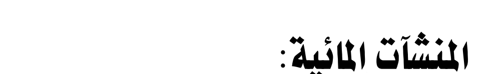


• **سوق القطانين**:

يقع على الجهة الغربية لمنطقة الحرم القدسي الشريف، وهو من أبرز الآثار الإسلامية المملوكية في مدينة القدس. أنشأه مع الباب الذي يطل على ساحة الحرم الأمير تنكز نائب الشام (٧١٢-٧٤٠هـ/١٣١٢-١٣٣٩م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعمره العمارة المتقنة التي ما زالت ظاهرة إلى الآن.

سمي السوق بهذا الاسم لكونه سوقاً متخصصاً بالمنسوجات القطنية، وطوله من الشرق إلى الغرب مائة متر وتعلوه قناطر، وعرضه عشرة أمتار، وعلى جانبيه حوانيت كانت معدة لبيع الأقمشة القطنية والحريرية التي كانت تحملها القوافل إلى القدس من الهند عن طريق البصرة وبغداد والموصل. الحوانيت متشابهة شكلاً وحجما، وفي السقف فتحات لإدخال الضوء والهواء إلى الشارع والحوانيت التجارية. وكان هذا السوق من أحسن الأسواق زمن المماليك. ولكن في القرون الأخيرة من العهد العثماني تضاءلت أهمية السوق بسبب تحول طريق التجارة أثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح إلى أوروبا. يضم سوق القطانين كثيراً من الآثار الإسلامية من بينها ثلاثة خانات وهي : خان الغادرية، وخان تنكز، وخان القطانين. وحمامان هما: حمام العين، والشفاء، وقد أعيد تعمير هذا السوق عام ١٩٧٤م من قبل دائرة أوقاف القدس فعادت إليه الحياة من جديد[٢٤].





المنشآت المائية:

يعدُّ موضوع توافر المياه في مدينة القدس من المواضيع المهمة التي كانت الشغل الشاغل للحكام والولاة المسلمين الذين تقلبوا على حكم هذه المدينة، سواء أكان ذلك من

حيث مصادرها أم آلية استخدامها ، وقد نجم عن ذلك وضع بنية تحتية من خلال وضع نظام مائي من الآبار والقنوات والينابيع ، أو إقامة منشآت عمرانية مثل: الأسبلة والحمامات.

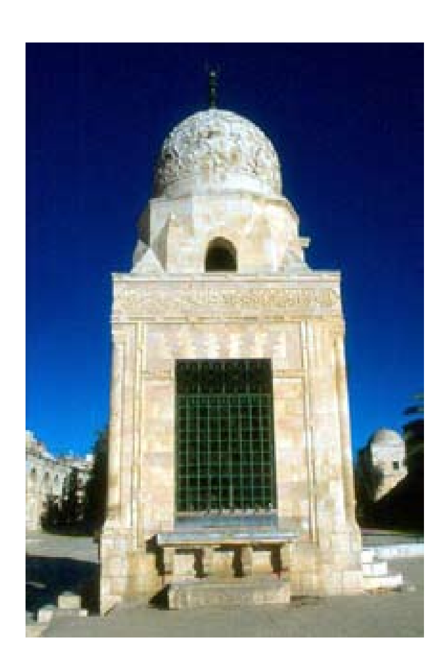
الأسبلة:

طراز معماري إسلامي مهم، تبلورت عمارته منذ بداية الفترة الإسلامية نتيجة للاهتمام بالسقاية، وتوفير المياه لأطراف المدن وداخلها. والسبيل هو عبارة عن مكان أو بناء لشرب الماء يقام في الأماكن العامة والأحياء وأركان المساجد والمدارس والخانقاوات أو بالقرب منها.

وقد انتشرت الأسبلة في العصرين المملوكي والعثماني، وكانت تبنى بشكل أنيق ومزخرف بالخزف والرخام والفسيفساء، وكان ينقش على إحدى اللوحات الحجرية اسم القائم على المشروع، وتاريخ البناء مع عبارات شعرية ودينية تتضمن الدعوة الصالحة لمن أقام البناء.

وكان السبب الأساس في بناء هذه الأسبلة دينياً حيث يعد ذلك أحسن الأعمال كما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – عندما سئل عن أي الأعمال أفضل؟ قال: "سقي الماء" وهناك كثير من الأسبلة المنتشرة في أنحاء مدينة القدس نذكر منها سبيل قايتباي وسبيل باب السلسلة[٢٥].

- **سبيل قايتباي**:



يقع في ساحة منطقة المسجد الأقصى بين باب السلسلة، وباب القطانين، وعلى بعد خمسين متراً من جدار الحرم الغربي بين درج صحن الصخرة الغربي الأوسط والمدرسة العثمانية. ويعد من أشهر أسبلة القدس وأجملها، ويعود تاريخ البناء الأول لهذا السبيل إلى عهد السلطان الأشرف سيف الدين اينال (٨٦٥-٨٥٧/١٤٥٣-١٤٦٠م)، وذلك حسب ما ورد في الشريط الكتابي للسبيل، وكما ورد في كتاب الأنس الجليل لمجير الدين. ثم أعاد بناءه السلطان المملوكي الأشرف قايتباي، وقد أعيد تجديد بنائه في الفترة العثمانية، في عهد السلطان عبد الحميد سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، وذلك حسب ما جاء في الشريط الكتابي للسبيل الذي من المحتمل أنه استبدل بالشريط الذي كان عليه في عهد قايتباي.

يتألف مبنى السبيل من غرفة قوامها أربع واجهات معمارية تعلوها قبة حجرية كروية أقيمت على مثلثات كروية شكلت رقبة حجرية مضلعة، وقد فتح في واجهاته الثلاث شبابيك مستطيلة الشكل، أما الواجهة الشرقية فقد فتح فيها باب السبيل. وقد زخرفت القبة من الداخل والخارج بزخارف نباتية نافرة.

أما الواجهات الأربع للسبيل فقد زخرفت بعناصر معمارية وفنية اشتملت على صفوف من الحجارة المشهرة باللونين الأحمر والأبيض، والأعمدة الركنية المزخرفة، والإطارات الميمية التي أحاطت بالشبابيك ، والشريط الكتابي الذي يقوم أعلى الواجهات الأربع للسبيل(٢٦).

• سبيل باب السلسلة:



أحد الأسبلة التي أنشاها السلطان سليمان القانوني في القدس سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م. يقع في الميدان الصغير المعروف بساحة باب السلسلة، واجهة السبيل تشبه البوابة المستطيلة، ويعلوها قوس عليه إفريز متعرّج، وعلى جانبي الواجهة أعمدة مجدولة رفيعة جداً، وفي وسط الواجهة تحت القوس خمس وردات متفتحة لها تسع أوراق بارزة، وعلى الجانبين في أعلى الواجهة تاجان بارزان، ويلتف حول الواجهة كورنيش ينتهي بثنية حلزونية من الأسفل، وتحت الوردات المفتحة لوحة رخامية عليها ثلاثة أسطر من الخط النسخي التركي بحروف كبيرة نصها :

١. أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك مولانا السلطان الملك الأعظم والخاقان المكرم، مالك رقاب الأمم سلطان الروم. والعرب والعجم،
٢. عز الإسلام والمسلمين، ظل الله في العالمين، حامي الحرمين الشريفين، السلطان سليمان بن السلطان سليم خان.
٣. خلد الله ملكه، وسلطانه، وأدام عدله، وإحسانه بتاريخ ثاني وعشرين شهر رجب المرجب من شهور وسنة ثلاث وأربعين وتسعمائة"(٢٧).

الحمامات:

هي من طرز العمارة الإسلامية المتميزة، وكذلك من الأبنية العامة التي أقيمت في مدينة القدس منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي للمدينة المقدسة. وقد ذكر المؤرخون والرحالة والمسافرون أسماء بعض هذه الحمامات ففي القدس مثلاً كان هناك ما يزيد عن ثلاثة عشر حماماً، ذكر منها أوليا جلبي أثناء زيارته للقدس ستة منها وهي : حمام السيدة مريم وحمام السلطان وحمام الشفاء وحمام العين وحمام الصخرة(٢٨).

من أهم هذه الحمامات الباقية في مدينة القدس حمام العين وحمام الشفاء: من الناحية المعمارية يقسم الحمام قسمين متلاصقين، ومنفصلين من حيث الاستعمال، ولكل منهما مدخله الخاص، الأول: وهو المكان الذي يؤمه المستحمون. والثاني: للخدمات التقنية والتشغيل، ويسمى الخزانة أو القميم حيث يوجد فيه الموقد أو المرجل، وكذلك خزانات المياه الباردة والحارة. وتندفع منه لتتوزع داخل الحمام بوساطة سواقي أو اقنية فخارية أو رخامية، من هذا القسم يهوّى الحمام عديم النوافذ، وعلى الجدار الفاصل بين القسمين توجد فتحات تسمح بدخول البخار إلى قاعة الاستحمام.

أما مكان الاستحمام فيدخله الزبائن من باب ضيق حفاظاً على حرارة المكان، وهو يقسم بدوره أربعة أقسام: القاعة الأولى الباردة، وهي لخلع الملابس، والقاعة الثانية أكثر دفئاً. وتخلع فيها الملابس شتاءً، والقاعة الثالثة وهي المدفأة الأولى، والقاعة الرابعة وهي المدفأة الثانية، أو الغرفة الحارة وهي مكان الاستحمام الحقيقي حيث يوجد فيها مخادع وخلوات ومغاطس وأجران من حجر أو رخام(٢٩). ومن أهم هذه الحمامات التي ما زالت ماثلة في المدينة حمام العين وحمام الشفاء.

- **حمام العين** :



يقع عند ملتقى طريق الواد في سوق القطانين بالقدس، وهو من أشهر حماماتها، بقي يعمل حتى عام ١٩٨٢م. أنشاه الأمير تنكز سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م ، وأوقفه على مدرسة الخانقاه التنكزية. وسمي بحمام العين نسبة إلى عين العروب التي ترفده بمائها بوساطة قناة السبيل التي كانت تحمل مياه عين العروب إلى القدس. ويتضح

مما ورد في وقفية هذا الحمام أن جميع مداخله وأرضه مرخمة بالرخام الملون.

يدخل إلى الحمام اليوم من باب عن طريق الواد، وحسب مخططه يتم النزول درجات عدة بعد الباب حيث يصل الداخل إليه إلى قاعة الاستقبال الرئيسة وهي المشلح، وفيها كراسي ومصاطب، وفي وسط القاعة بركة فيها نافورة ، والأرضية مبلطة ببلاط حجري. ومن هذه القاعة هناك ننتقل إلى باقي أجزاء الحمام من خلال باب في جدارها الجنوبي يؤدي إلى ممر ضيق وعلى جانبية غرفتان يطلق عليهما اسم المشلح الساخن والممر نفسه يؤدي إلى غرفتين أخريين كل منهما تسمى حمام، وفي النهاية يأتي بيت النار أو القميم الذي يعمل على تسخين الماء ، وفي هذه الغرف أجران عدة ومغاسل تستخدم للاستحمام[٣٠].

- **حمام الشفا** :

يقع وسط سوق القطانين على السور الغربي من الحرم القدسي الشريف. أنشأه الأمير سيف الدين تنكز سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م وأوقفه على مدرسة الخانقاه التنكزية التي أنشأها بباب السلسلة في القدس.وقد ورد ذكر هذا الحمام في كثير من المصادر التاريخية منها: كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي.

ويتكون مخطط الحمام –حسب ما جاء في وقفيته– من: المدخل ثم المشلح حيث كان فيه بركة مرخمة وأرضية مفروشة بالرخام. وبعد المشلح يتم الانتقال إلى الحمام الساخن، حيث كانت توجد فوقه قبة معقودة بجامات من الزجاج، وفيها مقاصير وأجران، وقد وصف هذا الحمام (L. Golvin) عندما زار القدس عام ١٩٦٧م حيث كان ما زال يعمل فقال: "إنه كان فيه غرفة استقبال ثم غرفة المشلح، وهي مغطاة بقبة، وفي وسطها منور ثماني الأضلاع تتوسطه بركة مثمنة الأضلاع ، وفيها جرن مزخرف بالزخارف الهندسية، وثلاثة مقاعد من الحجر في الجوانب الثلاثة: الشرقي، والغربي، والشمالي. ثم ينتقل الداخل إلى ممر ضيق يؤدي إلى المراحيض، ومن الممر نفسه يصل إلى المشلح الثاني، وفيه قبة ذات فتحات مستديرة مصفوفة بشكل نجمة، وعلى جوانبها الثلاثة مقاعد مبنية من الحجر، ثم ينتقل إلى غرف أخرى مشابهة للسابقة في جهتها الجنوبية، ثم تسير في الممر باتجاه الغرب، فتأتي إلى قاعة الحمام البارد وهي مغطاة كسابقتها ولها مقاعد حجرية، أما الغرفة الأخيرة فتدخل إليها باتجاه الشمال، وهو يدعى الحمام الساخن أو بيت النار، عليها قبة تشبه قباب الغرف السابقة، كما يوجد فيه بعض الخلوات والمغاطس. وكان هذا الحمام من حمامات القدس الكبيرة ويتم الشفاء فيه من جميع الأمراض، وقد زاره أوليا جلبي وقال عنه: إن كل مريض يدخله يشفى بأمر الله. وكان الحمام في العهد العثماني ضمن وقف قبة الصخرة، وكان ريعه السنوي– كما هو موثق في الدفاتر– حوالي ٤٠٠٠ درهم[٣١]".

المنشئات الاجتماعية:

أفرزت الأهمية الدينية أيضا مظاهر اجتماعية، شجعت كثيراً من الناس على الإقامة في بيت المقدس منها: فضائل زيارة الأماكن المقدسة، أو فضل السكن والإقامة فيها، هذا إضافة إلى فضائل كثيرة تتمتع بها المدينة، ساهمت جميعها في جعل هذا المكان في قلوب المسلمين، مما أدى إلى إنشاء بعض المؤسسات الاجتماعية المهمة فيها كالأربطة والتكايا.

- **الأربطة**:

وهي عبارة عن أبنية عسكرية ودينية شيدت لتكون للمتعبدين والمجاهدين ممّن كانوا يدافعون عن حدود الدولة الإسلامية. ثم تطورت وظيفتها فيما بعد، وغلب عليها الطابع الديني، فأصبحت تمثل أماكن للمتصوفة والزهاد، وكذلك مأوى للصوفيين والرحالة والحجاج[٣٢].

- **الرباط الزماني**:

يقع على الجهة الشمالية لباب المطهرة مقابل مدخل المدرسة العثمانية، فوق الإيوان الذي بباب القطانين بالقدس. أنشأه شمس الدين بن الزمني أحد خدام السلطان الأشرفي قايتباي سنة ٨٨١هـ/١٤٤٧م كما هو وارد على النقش الموجود في مدخله. وهو ذو عقد ثلاثي وشبابيك مستطيلة ،جميعها مزخرفة بالحجارة الملونة بالأحمر والأبيض، وهي ذات زخارف متعددة الأشكال، كالمقرنصات، والصنج المعشق، واللوحات الرخامية المزخرفة بالزخارف الهندسية والكتابية.



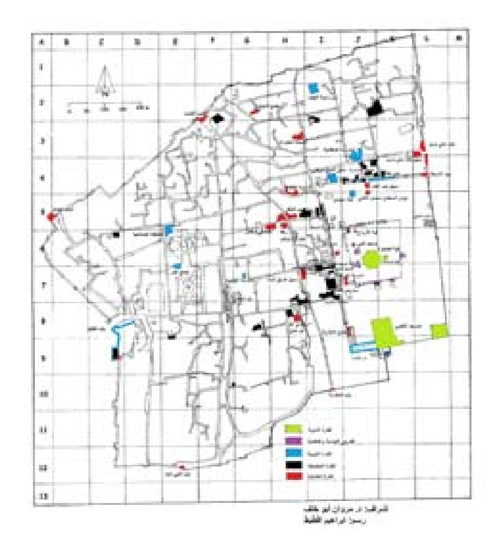
ويتكون البناء من طابقين: الطابق الأول، يوصل إليه عن طريق المدخل إلى الدركا، ثم إلى غرف أخرى جميعها مسقوفة بالعقود المتقاطعة. أما العلوي، فنتوصل إليه عن طريق درج يؤدي إلى ساحة تحيط بها بعض الغرف ما عدا الجهة الغربية[٣٣].

• **التكايا**:

لم تظهر التكايا إلا في العصر العثماني، وكانت الغاية منها إيواء الدراويش وأبناء السبيل والفقراء والمساكين وإطعامهم من ميزانية حبست لهم. وتتألف التكية من أقسام عدة اثنين لا بد منهما لتصح التسمية، الأول: هو المسجد، وهو مستقل البناء، والثاني، يتمثل بالمجمع السكاني المتكامل المرافق. أما العناصر الأخرى التي قد تلحق بالتكية فهي: الضريح، وترب بعض الأولياء والأمراء، ومكتبة عامة، والمدرسة المعدة لاستقبال الأولاد وتدريسهم القرآن الكريم والخط، وأحسن مثال لها هي تكية خاصكي سلطان بالقدس التي تقع في عقبة التكية شرقي دار الأيتام الإسلامية في مدينة القدس. أنشأها خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني، وهي روسية الأصل، واسمها الأصلي روكسيلانة في عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م، تعد هذه التكية من أهم المنشآت التي أقامها العثمانيون لمساعدة الفقراء والمساكين في مدينة القدس. وقد أوقفت عليها منشئتها عقارات عديدة في مختلف أنحاء فلسطين. منها أراضي في أريحا وقرية شويكة في قضاء طولكرم وقرية كفر حبش التابعة للرملة.

تتألف التكية من أربع وحدات معمارية: الوحدة الأولى وهي مسجد للصلاة، والثانية مبنى يتألف من مطبخ فيه مخبز وملحقات كمخابز وأحواض مياه، ونافورة ماء، والثالثة رباط للصوفية يحتوي على ما لا يزيد عن ٥٥ غرفة، والرابعة خان منيف للمسافرين[٣٤].


خارطة توضح التطور المعماري خلال العصر الإسلامي في مدينة القدس.



مما سبق نستطيع القول إنه بعد الاطلاع على نماذج البقايا المعمارية التي بنيت في المدينة المقدسة خلال الفترة الإسلامية، بدا واضحاً أنه كان هناك تطور معماري بدأ منذ اللحظة الأولى التي دخل بها المسلمون المدينة، وذلك بإنشاء المسجد الأقصى من قبل الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، واستمر هذا التطور حتى نهاية الفترة العثمانية من خلال البقايا المعمارية التي أنشئت وتوزعت في أماكن متعددة، والتي ما زال بعضها قائما ممثلة القطاعات المعمارية كافة من منشآت ثقافية وتجارية ومائية واجتماعية. مما ساعد وبشكل مباشر في صبغ المدينة بالطابع الإسلامي وهو الطابع الذي تتمتع به المدينة حتى يومنا هذا.

الهوامش:

١. مجير الدين ١٩٧٣ ، ج١ :٢٥٣ ؛ الواقدي ١٩٦٦ ١ج ١٦٨– ١٦٧، المقدسي ١٩٨٧: ١٤٥
٢. بيشريللو ، ١٩٩٣: ٨٨–٨٩
٣. المقدسي، ١٩٩٤: ١٦٦–١٦٧
٤. Wright, 1948:1-2
٥. المقدسي، ١٩٩٤: ٣١٢
٦. المقدسي، ١٩٨٧: ١٤٥
٧. Hamilton, 1949: 47
٨. خسرو، ١٩٧٠: ٢٥
٩. Creswell .1969.Vol. I
١٠. Ben-Dov, 1989: 95-96
١١. أبو خلف ٢٠٠١: ١٧٧
١٢. طه، ١٩٩٦
١٣. العسلي، ١٩٨١: ٥١–٥٣
١٤. العسلي،118:1981، Burgoyne 1987: 223
١٥. العسلي، 1981 :157 - Burgoyne 1987: 589
١٦. غالب ١٩٨٨:١٥٧
١٧. أبو خلف ٢٠٠١: ٨٩
١٨. العسلي ، ١٩٨١ : ٣٣٨
١٩. أبو خلف، ٢٠٠١: ٧٦
٢٠. غالب :1988 :156;Abu Khalaf, 1983:178-180 ، العسلي ١٩٨٢ :٣٩
٢١. أبو خلف ٢٠٠١:٩٣
٢٢. العسلي 1982 : 44 ، Burgoyne, 1987:479
٢٣. غالب ١٩٨٨: ٢٣١–٢٣٠
٢٤. أبو خلف 2001 : 110 ، Burgoyne, 1987: 273
٢٥. غالب، ١٩٨٨: ٢١٨–٢١٩، أبو خلف، ٢٠٠١: ١٣١، العسلي، ١٩٨٢:٢١٨
٢٦. العسلي 1982: 248، Burgoyne, 1987: 606
٢٧. العسلي، 267:1982، Hillenbrand, 2000: 685
٢٨. العسلي، 1982 :171 ,Celebi ,1972 vol. 13: 250

٢٩. أبو خلف ٢٠٠١: ١١٧، العسلي، Dow 1996: 90-91, 169: 1982
٣٠. العسلي ١٩٨٢:١٩٠، Dow 1996 :87-90
٣١. العسلي، ١٩٨٢: ١٧٥، Dow, 1996: 87-90 , Golvin,1967,xx:112
٣٢. العسلي،١٩٨١:٣٢٢
٣٣. العسلي ،١٩٨١: ٣٢٢ ، ابو خلف ،٢٠٠١: ٧٩
٣٤. العسلي،١٩٨٢::٩-٣٢ ،ابو خلف ،٢٠٠١: ٧٧

المصادر والمراجع:

اولاً: المراجع العربية

١. بيتشريللو، ميشيل. ١٩٩٣ كنائس مأدبا. مطبعة الفرنسيسكان. القدس.
٢. الحنبلي، مجير الدين. ١٩٧٣. الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل. عمان.
٣. العسلي، كامل جميل. ١٩٨٢. من أثارنا في بيت المقدس. عمان.
٤. العسلي، كامل جميل.١٩٨١. معاهد العلم في بيت المقدس. عمان.
٥. المقدسي، البشاري. ١٩٨٧. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. (تحقيق د. محمد مخزوم). بيروت.
٦. المقدسي، شهاب الدين. ١٩٩٤. مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام. تحقيق احمد الخطيمي. بيروت.
٧. الواقدي، ربي عبدا لله محمد بن عمر.١٩٦٦. فتوح الشام ط٤،مكتبة ومطبعة مصطفى ألبابي ألحلوي بمصر.
٨. أبو خلف، مروان. ٢٠٠١. من معالم الحضارة الإسلامية في فلسطين. سلا، المملكة المغربية. طه، أحمد يوسف. ١٩٩٦. الباب الذهبي في الفترة الإسلامية، دارسة أثرية تاريخية. القدس.
٩. غالب، عبد الرحيم. ١٩٨٨. موسوعة العمارة الإسلامية. بيروت.

ثانياً: المراجع الاجنبية

10. *Abu Khalaf, M. 1983. Khan Yunus, The Khans of Palestine. LEVANT,Vol. XV.*
11. *Ben-Dov, M. 1985. The Shadow of the Temple. Jerusalem.*
12. *Burgoyne,M. 1987. Mamluk Jerusalem. An Architectural Study Scorpion Publishing Ltd. England.*
13. *Celibi,E . 1972. Seyahatnamesi.Istabbul,vol.13.*
14. *Crewell, R. A. C 1969. Early Muslim Architecture, vol. I, Part II (2nd edition) Oxford The Clarendon press.*
15. *Crewell, R. A. C 1989. A Short Account of Early Muslim Architecture, Revised and Supplemented by James W. Allan. Cairo.*
16. *Dow,M. 1996. The Islamic Baths in Palestine. Oxford.*
17. *Golvin,L. 1967. Quelques Notes sur Le Suq al-Qattanin.Bulletin d,Etude Oriental,Tome XX.*
18. *Hamilton, R. W. 1949. The Structural History of the Aqsa Mosque .London.*
19. *Hellenbrand , R. and Others (ed) 2000. Ottoman Jerusalem Living City: 1517-1917. London.*
20. *Wright, T. 1948. Early Travels in Palestine. London.*